الجامعة المستنصرية – كلية الآداب

قسم اللغة العربية / المرحلة الثانية

د. عباس رحيم عزيز

مادة الأدب الجاهلي

المحاضرة الثامنة عشرة

شعراء آخرون:

عدي بن زيد العبادي شاعر الحكمة في الجاهلية:

وأشهر شعراء المسيحية في الجاهلية عدي بن زيدي شاعر الحيرة المشهور، وهو من العباديين ومن بيت شريف من بيوتهم النصرانية، خدم أبوه في دواوين الفرس وفي دواوين المناذرة بالحيرة، ولما ايفع ابنه عدي عني بتربيته وتأديبه على الطريقة الفارسية، فكان يحسن لغة الفرس كما كان يحسن لغة العرب، وتعلم الرمي بالنشاب ولعب العجم على الخيل بالصوالجة، ولم يلبث أن التحق بديوان كسرى، وعهد اليه فيه بالشؤون العربية ويقال: أن كسرى أرسله إلى ملك الروم في بيزنطة بهدية، فلما أتاه بها اكرمه، وفي أثناء عودته مر بدمشق وهناك انطلق لسانه بالشعر، وعاد إلى الحيرة فوجد أباه قد توفي، وظل مدة متنقلا بين الحيرة.

أهم الموضوعات التي يدور فيها شعر عدي الخمر، وذكر الموت والفناء، وهو في الموضوع الأول يعد أبا لشعراء الخمر في الجاهلية من مثل الأعشى، ويروي الرواة لعدي بجانب شعره في الخمر أشعارا في الفناء وزوال الحياة، وهي تأخذ عنده أسلوبين: أسلوبا يتحدث فيه عن الحياة والموت وان الدنيا غير باقية، وأسلوبا قصصيا يتخذ فيه من التاريخ وهلاك الملوك والأوائل وسيلة إلى العظة والعبرة، إذ يقول:

**أعادل أن الجهل من ذلة الفتى وأن المنايا للرجال بمرصد**

**كفى زاجراً للمرء أيام دهره تروح له بالواعظات وتغدي**

هذا أن البيتان مليئان بالحكم والمواعظ في البيت الأول يقول الشاعر: هنا حقيقة لا يمكن تجاهلها وهي أن الجهل ذلة للفتى وان المنايا جمع منية في موضع ومكان لارتقاب للرجال فكفى بالمرء زاجرا أيام زمانه التي تروح وتغدو له بالمواعظ فما أخبار الأمم السابقة وما أصابهم إلا موعظة لنا فهل بقي منهم الآن من أحد؟

وقوله:

**فنفسك فاحفظها من الغيّ والخنا متى تغوها يغو الذي بك يقتدي**

إذن فالزم نفسك واحفظها من الضلال والفحش، ولتنتبه إلى أنك متى توقعها بالضلال فإنك تغوي وتضل من يقتدي بك.

**وإياك من فرط المزاج فاِنه بتسفيه الحليم المــــــسددّ**

ثم يحذرنا من في المزاح ولعلها من اهم الأمور التي لابد أن نحذرها لان كثرة المزاح والإفراط به ----------------------

**عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقــــارن يقتــــــدي**

**فاِن كان ذا شر فجانبه سرعـــــــة واِن كان ذا خيـــر فقارنه تـــــهتد**

ثم قال إن أردت معرفة المرء معرفة حقيقة فلا تسأل عنه هو، وإنما أسال عن قرينه وصاحبه، لان الصاحب يفعل مثل فعل قرينه تشبها به، وما دام الأمر كذلك فعليك وبسرعة، مجانبة وترك من كان ذا شر من أصحابك.

وقوله:

**إذا رأيت الشّر يبعثُ أهلــــــــــــهُ وقامَ جُناة الشرّ للشرّ فاقعـــــــــــــــد**

**اِذا كنت في قوم فصاحب خيارهم ولا تُصاحب الأردى فتردى مع الرَدي**

هنا من باب الاستعارة المكنية حيث شبه الشر بإنسان له أهل يبعثهم ليفسدوا ويخربوا، فيقول إذا رأيت الشر قد بعث أعوانه، ورأيت أصحاب الشر ومن يجنونه وقد قاموا للشر، فلا تقم مثلهم ولا تشترك معهم بل اقعد مع الأخيار، وإذا كنت في جماعة فصاحب خيارهم أي أفضلهم ولا تصاحب الهالك صاحب الرذيلة فتهلك مع الهالك.

**وبالعدل فانطق أن نطقت ولا تلم وذا الذّم فأذممه وذا الحمد فاحمد**

وهنا يختم أبياته بأمر مهم للجميع وهو تحري العدل في أقوالنا وما ننطق به فيقول: انطق بالعدل أن نطقت أو تكلمت ولا تلم أي لا تفزع أو تهتم لاحد، فبالعدل تكسب الجميع، وأذمم من يستحق الذم فلعله يرتدع، وبالمقابل عليك أن تمدح وتثني على من يستحق الثناء والمدح.

الشعراء الصعاليك:

**الصعاليك:** جمع صعلوك وهو في اللغة: الفقير الذي لا مال له يعينه على أعباء الحياة، ويقول الأزهري في معنى الصعلوك: هو الفقير الذي لا مال له ولا اعتماد، وفي جمهرة أشعار العرب الصعلوك: هو الفقير، وهو أيضا المتجرد للغارات.

أما الصعاليك في التاريخ الأدبي هم جماعة من شواذ العرب كانوا يغيرون على البدو والحضر فيسرعون في النهب لذلك يتردد في شعرهم صيحات الجزع والفقر والثورة ويمتازون بالشجاعة والصبر وسرعة العدو وحين نرجع إلى أخبار الصعاليك نجدهم انهم كانوا أفقر الناس فكل صعلوك فقير حتى عروة بن الورد سيد الصعاليك، والذي كانوا يلجئون اليه كلما ضاقت بهم السبل ليجدوا مأوى حتى يستغنوا وقد قال القرشي في كتابه أن الصعلوك هو لص فاتك خليع وذئب. والمعروف عن الصعاليك انهم جماعة من اللصوص انتشروا في الجزيرة العربية بالذات في المناطق الجبلية والصحاري الواسعة والأراضي الوعرة أو أي ارض تكون فيها الحياة أصعب من غيرها، كانوا قد نبذتهم قبائلهم أما لأنهم أبناء إماء أو انهم أتوا (بطرق) تخالف عادات وتقاليد القبيلة أو لأنهم كانوا يعرضون القبيلة للأخطار الصعبة ومواجهتها.

ونتيجة لذلك فقد عاش الصعاليك خارج قبائلهم وقطعوا كل امل بالعدالة وقطعوا كل صلة مع أهلهم وقبيلتهم وامنوا بأنهم ظلموا في بلاد تسودها القسوة فحقدوا على القبيلة وأفرادها وعلى أصحاب الثروة والمال. والتي تؤدي في النهاية إلى قيام الصعلوك بالانسلاخ الكلي عن قبيلته ومجتمعه، والعيش اعتمادا على النفس وعن طريق الإغارة على كل من حوله من بشر وخطف ما لديهم من خيرات. وكانت القوافل التجارية وقوافل الحجاج من أكبر أهدافهم في السلب والنهب، حيث كانوا ينتشرون حول المدينة والطائف وأطراف اليمن الشمالية، وكان أكثر تواجدهم في نجد وسط الجزيرة العربية.

**وقد قسم الصعاليك على ثلاث مجاميع:**

1. **فئة الخلعاء الشذاذ**: وهم الذين خلعتهم قبائلهم بسبب أعمالهم التي لا تتوافق مع أعراف القبائل التي ينتمون اليها مثل حاجز الأزدي، وقيس الحدادية.
2. **وفئة أبناء الحبشيات السود**: ممن نبذهم أباءهم ولم يلحقوهم بأنسابهم مثل السليك بن السلكة وتأبط شرا، والشنفري.
3. **وفئة احترفت الصعلكة احترافا:** وحولتها إلى ما يفوق الفروسية من خلال الأعمال الإيجابية التي كانوا يقومون بها مثل عروة بن الورد سيد الصعاليك وقبيلتي هذيل وفهم.

وقد عرفت أيام الجاهلية الكثير من الشعراء الصعاليك العدائين، مثال: الشنفري، السليك بن السلكة، تأبط شرا، المنتشر بن وهب الباهلي، أوقى بن مطر المازني، عمر بن البراق، أسيد بن جابر.

وكان لبعض هؤلاء الصعاليك أفراسا سرقوها في غاراتهم الكثيرة، لذا فبعضهم كان من الفرسان الذين يحترفون القتال والغزو وهم على ظهور الجياد، وكان لعروة بن الورد فرس اسمه (قرمل)، وللسليك بن السليكة فرس أسمه (النحام)، وللشنفري فرس يدعى (اليحموم).

وبجانب كل أحكامنا القاسية على نهج وسلوك الحياة الصعاليك فأيضا علينا أن نعترف بالوجه المضيء والخصال الجيدة والإنسانية فيهم، ومنها عطفهم ومساعدتهم للمرضى والضعفاء والمسحوقين والمحاويج من أبناء مجتمعهم الفقراء، وكمثال نرى ذلك واضحا في سيرة بعضهم أمثال (عروة بن الورد) و (أبو خراش الهذلي) الذين كانوا يساعدون المئات من الصعاليك الذين لا يقدرون على توفير لقمة يومهم، وكان عروة بن الورد قد جمع حوله الكثير منهم، استعمل بعضهم في غزو ونهب الأثرياء والموسرين واستعمال أموالهم في إطعام الضعفاء والمرضى والفقراء من نفس أبناء ذلك المجتمع القاسي .

موضوعات شعر الصعاليك

* الشعر داخل دائرة الصعلكة

1. أحاديث المغامرات:

من الطبيعي – مادامت حياة صعاليك العرب قد اتخذت شعارها "الغزو والإغارة للسلب والنهب" أن يكون أكبر ما يعنى به من شعراؤهم أحاديث مغامراتهم؛ لان هذه المغامرات هي "الحرفة" التي قامت عليها حياتهم، والأسلوب الذي أنتجوه فيها لتحقيق غاياتهم. وهم يتحدثون عن هذه المغامرات حديث المؤمن بقيمتها في حياته، المعجب بها، الفخور ببطولته فيها، أو بمقدرته على النجاة من أخطارها وقد ضاقت في وجهه سبل النجاة.

وهم يصفون كل ما يحدث في هذه المغامرات، منذ أن تأخذ جماعة الصعاليك في وضع خطتها، إلى أن تنتهي الغارة، ويعود فتيان الصعاليك بأسلابهم بعد ان نفذوا خطتهم، وحققوا أهدافهم، وهم يصفون، في أثناء ذلك، الطريق الذي سلكوه، ويتحدثون عن رفاق الغارة، ودور كل واحد فيها، وكيف نفذوا خطتهم.

1. وصف الأسلحة:

ومن الطبيعي أن يتحدث الشعراء الصعاليك عن أسلحتهم، فهي القوة الثالثة التي يعتمدون عليها في مغامراتهم إلى جانب قوة قلوبهم وقوة أرجلهم، تلك القوى الثلاث التي تقوم عليها حياة الصعلوك يجمعها تأبط شرا في رثائه للشنفري حيث يقول:

**فلا يبعدن الشنفرى، وسلاحه الـ حديد، وشد خطوة متواتـــــــر**

والأسلحة التي يصفها الشعراء الصعاليك هي تلك التي كان يعرفها العرب في العصر الجاهلي، سواء منها أسلحة الهجوم: السيف، والرمح، والقوس، والسهام، --------------------------الشعراء الصعاليك على الحديث عن هذه الأسلحة الحاحا شديدا، وليس في هذا غرابة؛ إذ أنها تكاد تكون كل ما يملكون في حياتهم الفقيرة، وهي من غير استخدام لأفعال المقاربة كل ما يحرصون عليه في هذه الحياة الحمراء المتمردة. كما يتحدث الشعراء الصعاليك عن أسلحة الهجوم، يتحدثون عن أسلحة الدفاع: الدرس والترس والمغفر، ولكنه حديث خافت الأنغام. وهذا طبيعي لأن الصعاليك ليسوا في حاجة إلى أسلحة للدفاع لأن سلاحهم الدفاعي الأول – أو بتعبير أدق – سلاح أكثرهم سرعة العدو الخارق للعادة، وهو سلاح طالما استخدموه فأنجاهم.

1. الحديث عن الرفاق:

كما يتحدث الشعراء الصعاليك عن أسلحتهم التي يستخدمونها في مغامراتهم، يتحدثون عن رفاقهم الذين يرافقونهم فيها، ودور كل واحد منهم، وما أكثر ما نجد في شعرهم ألفاظ الرجل، والمنسر، والسرية، والمقنب.

1. أحاديث الفرار:

كما يتحدث الشعراء الصعاليك عن مغامراتهم وانتصاراتهم فيها، وفوزهم على أعدائهم، يتحدثون أيضا عن فرارهم وهروبهم، دون يجدوا في هذه الأحاديث غضاضة، أو أمر يدعو إلى الخجل والمداراة، وفهم الخجل ما دام الفرار امرأ طبيعيا من قوم عدائين، أو- بعباره أخرى – سلاحا من أسلحتهم يضمن لهم النجاة ليعيدوا الكرة من جديد ليحققوا أهدافهم الاجتماعية والاقتصادية؟ فاذا لاحظنا – إلى جانب هذا – أن الفرار فرصة تتيح لهم إظهار تلك الميزة التي يفخرون بها دائما، وهي سرعة العدو، أدركنا سر حرصهم على أحاديث الفرار في شعرهم؛ لأنها أحاديث تتيح لهم مجال الفخر بهذه الميزة وقد اشتهر بعض الصعاليك بفرارهم، وبخاصة صعاليك الحجاز ومنطقة جبال السراة، وبالذات صعاليك هذيل التي كانت تنزل في هذه المنطقة.

1. سرعة العدو:

ولا يكاد الشعراء الصعاليك يتحدثون عن شيء في مثل ذلك الإلحاح الذي نراه في حديثهم عن مغامراتهم كما يتحدثون عن سرعة عدوهم، ويبدو أن مرد هذا إلى امرين: أولهما شعورهم بأنهم ميزة تفردوا بها من بين إخوانهم في البشرية، وثانيهما إيمانهم بانها من الأسباب الأساسية في نجاتهم من كثير من المآزق الحرجة.

ومن هنا كان حديثهم عنها حديث المعجب بنفسه تارة، والمعجب بها تارة أخرى: المعجب بنفسه لأنه تفرد بها من سائر الناس، والمعجب بها لأنها كم أنقذته من أخطار أحدقت به.

1. شعر المراقب:

والمرقبة التي بتربص فوقها الشاعر الصعلوك دائما منيعة أبية على سواه، وأكثر ما يتحدثون عن تربصهم فوقها والليل مقبل يغشى الكون بدياجيه الكثيفة، ليكون هذا أمعن في التخفي، وأقرب إلى مواتاه الفرصة، وأدل على جرأتهم وقوة قلوبهم، و "الليل اخفى للويل" كما يقول العرب في أمثالهم، و "الصعاليك نومهم قليل"

ويرسم الشنفرى في قصيدته من شعره لوحة رائعة لمرقبة منيعة عالية يعجز دونها الصياد الماهر الخفيف الذي يخرج بكلابه المضراة للصيد، ويصف كيف صعد اليها وقد اقبل الليل بظلامه الحالك الشديد الذي يلف الكون، وكيف قضى الليل ولا شيء سوى نعلين باليتين، وثياب أخلاق، ثم أصحابه الذين لا يفارقونه، سيفه وقوسه وسهامه:

**ومرقبة عنقاء يقصر دونهـــــــا أخو الضروة الرجل الخفي المخفف   
نميت إلى أعلى ذراها وقد دنــــا من الليل ملتف الحديقة أســـــــدف   
فبت على حد الذراعين أحدبـــــاً كما يتطوى الأرقــــم المتعطــــــــف**

**قليل جهازي غير نعلين أسحـقت صدورهما مخصورة لا تخـــصــــف**

**وملحقة درس وجرد مــــــــلاءة إذا أنجمت من جانب لاتكـــــفــــف**

1. التوعد والتهديد:

حتى يجمعوا بين ركني القانونيين: التربص وسبق الإصرار! وأكثر من يتوعدهم الشنفرى بنو سلامان، أولئك الذين أشربت نفسه بغضهم، والذين كانوا السبب المباشر لتصعلكه، والذين عاهد نفسه ليقتلن منهم مائة بما اعتبدوه، وهو يتوعدهم في شعره توعدا عنيفا، فيعلن لهم أنه – ما لم يحل الموت بينه وبينهم – لن يكف عن غزوهم، فالمسألة عنده مفروغ منها، وكل ما يرجوه أن يمد الله في أجله حتى يشفي غليله منهم حين يلاقيهم في عقر دارهم:

**فإلا تزرني حتفتي أو تـلاقـنـــــــي أمش بدهر أو عـذاف فـنــــــورا**

**أمشي بأطراف الحمـاط وتــــــارة تنفض رجلي بسبطا فعصنصـــرا**

**وأبغي بني صعب بن مرب بلادهم وسوف ألاقيهم إن الـلـه يســـــرا**

1. الظواهر الاجتماعية والاقتصادية:

أما عقدة العقد التي اشترك فيها جميع الصعاليك، وتحدث عنها جميع شعرائهم فهي الفقر، تلك الظاهرة الاجتماعية والاقتصادية التي كانت السبب الأقوى في تصعلكهم ويتحدث الشعراء الصعاليك في أكثر من موضع من شعرهم عن فقرهم، وأسبابه، وتأثيره في أجسامهم، وأثره في حياتهم الاجتماعية. والوسائل التي يسلكونها للتخلص منه، والأسباب التي يحرصون من أجلها على التخلص منه، إلى غير ذلك من ألوان الحديث.

يصور الأعلم الهذلي فقره في صورة بدوية ساذجة ولكنها طريفة:

**زعمت خناز بأن برمتنا ... تغلي بلحم غير ذي شحم**

وفي قصيدته البائية المشهورة يرسم صورة إنسانيه مؤثرة له، وهو يفر من أعدائه بعد مغامرة من مغامراته في سبيل العيش وقد ذكر أهله الفقراء في صحرائهم المجدية، وحاجة أولاده الصغار الشعث الذين خلفهم وراه وفي العراء ولا شيء لهم سوى تلك الذلة التي تبدو عليهم كلما نظروا لمحا إلى أقاربهم في انتظار شيء يجودون به عليهم:

**وذكرت أهلي بالعرا وحاجة الشعب التوالب**

**المصرمين من التلاد اللامحين إلى الأقارب**

1. أحاديث التشرد:

تحدث الشعراء الصعاليك عن تشردهم في أرجاء الصحراء الموحشة، ووديانها المخيفة، وافتخروا باهتدائهم فيها دون دليل، أو قيامهم بمهمة الدليل لجماعة من رفاقهم، وتخذوا من هذا مادة للفخر بأنفسهم، أو لمدح رفاقهم الصعاليك.

يفتخر تأبط شرا – في حديثه إلى امرأة خطبها فامتنعت عليه – بأنه لطول تشرده ألفته وحش الصحراء واطمأنت اليه، حتى لتوشك أن تصافحه لو أن وحشا تصافح أنسا:

**يبيت بمغنى الوحش حتى ألفناه ويصبح لا يحمي لها الدهر مرتعا**

**رأيان فتى لا صيد وحش يهمه فلو صافحت أناسا لصافحنه معا**